الفصل الثامن والعشرين

شجرة الخليل الجافة

في الرابع والعشرين من حزيران/ مايو، عاد الجيش الصليبي العظيم إلىٰ موقعه الأمامي في بيت نوبة. وبدأ المعسكر على الفور يتساءل عن العملية القادمة. متى سيتحرَّكون مجدّداً؟ من سيحظى بامتياز الوقوف في الطليعة؟ أي قسم من السور سيباشر بتدميره؟ عَلَمُ من سيُرفع أولاً على الشرفات؟ ألا يجب تجنّب القلعة والاستيلاء على المرتفعات أولاً، في الجهة الشمالية من المدينة، في محيط بوابة دمشق؟ إنها دون شك أقلّ المناطق تحصيناً. هل يمكن أن تسفك دماء المسلمين مرةً ثانية في صحن الضريح المقدس؟ من سيتفوّق على أبطال الحرب الصليبية الأولى؟ من كان قائدهم غودفري أوف بويون مقارنةً بريتشارد الشجاع؟ ومن كان ريموند دو سان جيل على أي حال؟ بلغت همسات الاستفزاز مسامع قادتهم. فعقد مجلس القيادة الأعلى اجتماعاً لدراسة تحركهم المقبل.

ماذا حصل لريتشارد قلب الأسد فور عودته إلىٰ بيت نوبة؟ ما من مؤرخ يستطيع أن يفيدنا بهذه المعلومات. توحدت قيادته. تاق الفرنسيون أخيراً للهجوم. جُمعت معدات الحصار وانتصبت. باتت أورشليم على مرمى حجر.

صلاح الدِّين يخلي المدينة. يشعر الفرنجة بالثقة في النفس والتفوّق. حتى الجمال عبّرت عن استعدادها بالخوار.

فجأة وبدون سابق إنذار، خالج قلب الأسد شعور التردد المخجل. وقف شاحب الوجه منفطر القلب يعرض أمام باروناته تقييماً كئيباً لوضعهم. يبدو أنه استنتج في يوم واحد أن احتلال أورشليم أمر ميئوس منه. لعل النبوءة الكئيبة التي تفوّه بها الأسقف قد أفقدته شجاعته ورباطة جأشه.

بدأ كلامه بالقول: «لن تروني أقود رجالاً إلاَّ في درب أعتبره قويماً. ولا آبه لمن يلومني على عملي أينما ذهب جيشنا، فإنّ صلاح الدِّين على معرفة بمخططاتنا وبمسارنا وبعدد قواتنا. نحن بعيدون كل البعد عن الساحل. فإن دار حولنا ودخل بجيشه إلىٰ سهل الرملة وحال دون وصول التموين إلينا، ستجد القوّات المحَاصِرة نفسها في وضع حرج وستدفع الثمن غالياً وغالياً جداً. وبعد، إن محيط أورشليم طويل جداً وأسواره حصينةٌ ومنيعة. ولذلك يتطلّب خرق هذه الأسوار عدداً كبيراً من الجنود. فمن يحمي عندئذ خطوط التموين؟ لا أحد. ويمكن أن تتعرّض قوافل التموين للخراب الواحدة بعد الأخرى في حال عدم وجود حامٍ لها».

بالنسبة للفرسان أَو من دونهم رتبة، أَو حتى لأي شخص آخر شارك ريتشارد في آلام السنتين ونصف السنة المنصرمة وفي انتصاراتها وتضحياتها، فات أوان الكشف عن مهارة الأعداء أَو قوة دفاعات أورشليم الكئيبة. ألم يوشكوا على إحراز النصر؟ هل أمضوا السنتين الماضيتن هباء؟ هل ذهبت كل هذه الضحايا دون أي دافع؟ ساورت السامعين الشكوك والمخاوف، وتساءلوا: لماذا الآن؟ بعد كل هذه التضحيات التي قدّموا؟ استمع المجتمعون بصمت رهيب إلىٰ هذا الانهيار التام للإرادة والشجاعة. ربما لم يأبه ريتشارد لما كان يدور في خلدهم إذ تضمّن خطابه المزيد. فبعد الخجل استعان بعنصر الرأفة على الذات: «إن قدت الجيش لتطويق أورشليم بالأسلوب الذي تنصحون به

وهزمت في مسعاي هذا، سيلقى اللوم عليّ طوال حياتي، لا بل سيُلحق بي العار واللعنات. أعلم بالطبع أن البعض هنا وفي فرنسا يتوقون أن أرتكب خطأً مماثلاً كي يتسنّى لهم نشر الخبر وتشويه سمعتي. ولكن لبلوغ نتيجةٍ مشكوكٍ في تحقيقها، أعتقد أنه من الخطأ أن نتسرّع في التقدم. فنحن لا نعرف شيئاً عن الطرقات الضيقة والشعاب التي تفصلنا عن أورشليم. لو كانت معلوماتنا أوفر، لتمكنّا من التقدّم بأمان ولكن حالنا مغاير. يجب أن ننتظر ونحصل على نصيحة سكان هذه البلاد. ويجب أن ننتظر إلىٰ أن يصلنا خبر من فرسان الهيكل والإسبتاريين».

هذا الرجل الذي كان يوماً يخيف ولا يخاف، النبيل الفخور، حامل لقب قلب الأسد، الذي طالما ازدرى الضعيف والمتردد.

«نعم، يجب أن ننتظر ونطلب نصيحةً من يعرفون طرقات هذه البلاد حق المعرفة. ينبغي أن نسألهم إن كانت محاصرة هذه المدينة خيراً من محاولة احتلال مصر أَو بيروت أَو دمشق. وما أن نطلب منهم المشورة، لن نبقى على هذا القدر من التفرقة. إن أصرّيتم على متابعة الزحف على أورشليم، فلن أخذلكم. سأكون رفيقاً لكم لا قائداً. سألحق بكم ولن أقودكم».

لحظة غريبة هي لحظة تخلّيه عن القيادة. أصبحت الإمرة والسلطة في يد مجلس مكوّن من عشرين عضواً. انسحب خمسة من فرسان الهيكل، وخمسة من الإسبتاريين، وخمسة من فرسان صليبيي سورية القُدامى، وخمسة من النبلاء الفرنسيين للتشاور والاتفاق على الاستراتيجية الواجب اتباعها دون مشاركة ريتشارد. وعادوا يوصون بالانسحاب من أورشليم والزحف على الفور لاحتلال مصر.

بدا الوضع كأن القيادة العليا تتأرجح مترددةً كالسمكة ترتطم على الأرض. وانقلب الحال بسرعة من التردد إلىٰ فكاهة ساخرة. وللمفارقة العظمى، تعالت أصوات الفرنسيين أنفسهم معارضةً قرار التخلي عن أورشليم

علماً أنهم اتسموا بالتردد والتباطؤ طوال العملية بأسرها. لم يفدوا إلىٰ فلسطين بغية احتلال مصر. إنهم حجّاج! لقد أقسموا على الصليب بتحرير قبر الربّ من أيدي الهمجيين! فما شأن القاهرة في كل هذا؟

تقدم أحدهم بشجاعة وقال: «لقد غادرنا بلادنا لأجل المدينة المقدّسة فقط ولن نتراجع حتى نحتلها!».

فأجابه ريتشارد: «لقد لوِّثت كل الينابيع في محيط المدينة. ولا يمكننا أن نأخذ منها حتى ولا قطرة واحدة. فأين سنجد الماء؟».

ألم يواجه أبطال الحرب الصليبية الأولى مشكلة التلوّث ذاتها؟ ألم يأتوا بالماء من نهر الأردن؟

أجاب البارون الفرنسي مشيراً إلىٰ نبوءة عاموس في العهد القديم.

فسأل ريتشارد: «وكيف سنتمّكن من إرواء ظمئنا وظمأ دوابنا؟».

وجاءه الردّ من الفرنسي: «سنقسم الجيش إلىٰ قسمين. قسم يذهب إلىٰ نقاط الماء فيما يبقى القسم الثاني على مقربة من المدينة لمواصلة الحصار. نذهب إلىٰ نقاط الماء مرّة في اليوم».

«ما أن تدير كتيبة من الجيش ظهرها باتجاه نقاط الماء للارتواء وإرواء دوابها، ستنطلق قوة من المدينة وتهاجم الفرق الباقية وتقضي على المسيحية كلّها!».

كان ريتشارد يفقد احترامه وسيطرته على نفسه أمام ما أظهره له الفرنسي من ازدراء. عوضاً عن محاكاة غودفري دو بويون، بدا أشبه بيهوذا الإسخريوطي أَو أسوأ بعد: أشبه بفيليب أغسطس! بدأ كلامه يرنّ كرنين العويل والنحيب. لعلّ المال يعيدهم إلىٰ رشدهم. فقال ريتشارد: «إن وافق الفرنسيون على خطتنا لاحتلال مصر، سأقدِّم لهم أسطولي الموجود الآن في عكّا بكامل معداته. على متنه يستطيعون حمل مؤونتهم ويمكن للجيش أن يمشي بمحاذاة

الساحل بكل أمان. وأساهم، على نفقتي الخاصة، لتحقيق هذا المسعى بسبعمائة فارس وألفي جندي من المشاة. وإن ساورتكم الشكوك حيال التزامي، فإني أعدكم بالزحف بمعية جنودي وحدهم».

نزلت الصاعقة على الجنود ما أن وصل خبر الانسحاب إلىٰ مسامعهم. وشرعوا يتمرّغون في الغبار لمعاقبة أنفسهم مطلقين اللعنات على يوم انخراطهم في هذه العملية المنحوسة، وبعد ذلك، صبّوا غضبهم على ملكهم. يأسهم اليوم كان أعظم بكثيرٍ منه خلال الشتاء المنصرم. عندما أُخليت بيت نوبة للمرة الأولى على الأقل، كانت الأمطار والوحول هي التي حالت دون حصول هجوم. ولكن ماذا عن اليوم؟! انفجرت النزاعات بين مختلف الفئات.

الفرنسيون صبّوا اللوم على ريتشارد شخصياً. وبدأوا ينفصلون على المكشوف عن باقي فئات الجيش. بالغ هيوج Hugh، دوق أوف بُرغُندي، في الجسارة فألّف أغنية مقفّاة ماكرة تسخر من ريتشارد ولا تكتفي بالشك في براعته القيادية بل أيضاً في رجولته. لم يمرّ وقتٌ طويلٌ حتى ردد الجنود هذه الأغنية وأضافوا إليها الزعيق والنخير إلىٰ أن بلغت مسامع ريتشارد في الوقت المناسب. لم يشعر بالسرور وانتقم لنفسه بتأليف أغنيته الخاصة بدوق أوف برغندي. ونقلاً عن تقارير الحملة الصليبية، لم يكن يفتقر لمواضيع مثيرة للسخرية والتهكم.

دخلت الحملة الصليبية الثالثة طور تبادل الاتهامات.

لم يكن الشاعر الغنائي يكترث لمن يستحق اللوم. شغله الشاغل انصب على شجرة السنديان العتيقة في الخليل. كانت تُعرف باسم شجرة إبراهيم فقد كانت قديمةً بقدم العالم، وجافّةً تقريباً. كان المسيحيون في الأراضي المقدَّسة يعتقدون أنّ هذه الشجرة ذبُلَت يوم صُلِب المسيح. على مرّ القرون، لم يبق من جذع الشجرة إلاّ ما يكفي من الحياة لتبقى قائمة؛ وقد تنبأ المسيحيون،

مدفوعين بحماسهم، أنّ شجرة إبراهيم ستعود للحياة مرة أخرى عندما تقع الأراضي المقدَّسة تحت سيطرة أمير مسيحي.

في السادس من تموز/يوليو، بعد خمس سنوات بالضبط من كارثة معركة حطين، باشرت القوات الصليبية انسحابها للمرة الثانية من بيت نوبة.

وفيما كان الانسحاب جارياً، كان الشاعر يحسُّ أنَّ آخِر نسْغٍ من الحيوية يغادر شجرةَ الخليل الجافة.